مسلك الدراسات العربية (السداسي الثاني)

وحدة الشعر العربي القديم

وهي من الوحدات الأساسية في مسلك الدراسات العربية، لأنها إحدى أهم الركائز المعرفية لدارس الأدب العربي الذي تعتبر بداياته الأولى شعرية بامتياز، بل إن الشعر هو المكون الثقافي المميز للحضارة العربية، ففي كتاب الحيوان للجاحظ (36/1 – 37) أن "كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب، وشكل من الأشكال، وكانت العرب تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفّى. وكان ذلك هو ديوانها..". وأُثِرَ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال: "إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله، فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب."[1] وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرا[2]. فالشعر إذن أول نص لغوي حاور النص القرآني وتفاعل مع بنياته المعجمية واللسانية والدلالية...وضلت فاعلية الخطاب الشعري حاضرة ومستمرة ومنسجمة مع تعاليم الدين الإسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، الذين كانوا على وعي بأهمية الشعر واحتفاله بالجوانب المادية والمعنوية من حياة العرب.

الأهداف المتوخاة من وحدة الشعر القديم:

يمكن تسطير الأهداف المتوخاة من هذه الوحدة على الشكل التالي:

- ✓ تمثين الروابط لدى الطالب مع أول وأهم مكون ثقافي في الحضارة العربية.

[1] – العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، ص90/1.

[2] – المصدر نفسه، ص91/1.

- ✓ إرشاد الطالب إلى التفكير في طبيعة الإرهاصات الإبداعية الأولى التي سبقت إنجاز القصيدة العربية الجاهلية.
- ✓ إطلاع الطالب على أهمية الشعر في دعم الدعوة الإسلامية ومواكبته لمراحلها الأولى.
- ✓ تقريب الطالب من إدراك حدود التواصل والتفاعل بين الدرسين الشعري والقرآني.
- ✓ جعله قادرا على ملاحظة استمرارية الخطاب الشعري وحضوره الفاعل عبر مختلف المحطات التاريخية والكيانات السياسية، مع رصد التحولات الفنية والهيكلية والموضوعية التي عرفها الشعر العربي عامة والقصيدة خاصة.

ورغبة في الوصول إلى هذه الأهداف تم التركيز في المحاضرات على المحاور التالية:

1_ نشأة الشعر العربي وطفولته،

وكان منطلقنا في ذلك نص الجاحظ في كتاب الحيوان: "وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله، وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة..، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له، إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام.."[3]. ونص ابن سلام الجمحي في طبقات فحول الشعراء: "ولم يكن لأوائل العرب إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنما قصّدت القصائد وطوّل الشعر على عهد عبد المطلب، وهاشم بن عبد مناف..، وكان أول من قصّد القصائد وذكر الوقائع، المهلهل بن ربيعة التغلبي"[4].

[3] – الحيوان، للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، 37/1.

[4] – طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، قراءة وشرح: محمود محمد شاكر، ص: 26و39.

فالجاحظ، وغيره من القدماء، حاول التأريخ لبداية الشعر مع عصر امرئ القيس ومهلهل بن ربيعة، غير أن المحدثين رفضوا هذا الرأي لأن استواء الشكل الفني والصنعة الدقيقة لهذا الشعر يثبتان أن هناك مراحل أكثر تقدما سبقت عصر امرئ القيس ومهلهل، وهي مراحل نما فيها الشعر وتطور من صورته الأولى حتى وصل إلى هذا المستوى من النضج عند أقدم شاعرين وصل إلينا شعرهما. يقول الدكتور نجيب محمد البهبيتي في كتابه تاريخ الشعر العربي، ص4 – 5 : "فاليقضة العربية في الجزيرة أقدم بكثير من ذلك الذي ضربه الجاحظ موعدا لمولد الشعر العربي في شبه الجزيرة. فإن صحّ أن القصيدة العربية كانت تقوم من الحضارة العربية مقام المعبد والأثر الضخم يبنيه المصري والأعجمي تخليدا لمآثره، فالقصيدة العربية قديمة قدم الحضارة العربية. والحقّ أن العرب لم يعتمدوا من أقدم عصور تاريخهم على القصيدة فحسب كما وَهَم الجاحظ. فمأرب وصنعاء ومعابد اليمن واليمامة والحضر والساطرون، ومعابد شبه الجزيرة التي ذكرها ديودورس واسترابون وغيرهما، كل ذلك أقدم بكثير من التاريخ الذي يضربه الجاحظ موعدا لمولد القصيدة العربية بصورتها المعروفة لنا اليوم. والشعر مطلب فطري أصيل في نفس العربي قد يوجد إلى جانبه غيره، ولكنه لا يغني عنه.

ثم إن النمو الطبيعي للقصيدة العربية، وأوزانها موضوعاتها، واللغة ونحوها وأساليبها، وإيجازها، يستدعي أن تكون مرّت قبل زمن امرئ القيس بأطوار كثيرة، وتعثرت تعثرات جمة حتى اكتمل لها هذا الشكل الذي نجدها عليه في شعر امرئ القيس ومن سبقه أو جاء بعده".

وهذا لا يعني أن الجاحظ كان يقصد أن العرب لم يكن لهم شعر قبل هذا التاريخ، أو أنهم قريبو عهد بنظم الشعر، وإنما بنى حكمه على الشعر الجاهلي المتداول فحسب. وهذا أمر طبيعي لأنه لم يكن لدى نقاد العرب القدماء وعلمائهم من وسائل البحث والتنقيب ما بين

أيدينا اليوم من علوم الحفريات والاجتماع واللغات السامية المقارنة مما قد يضيء الطريق أمام الدارسين لمحاولة النظر فيما يمكن أن يكون عليه الشعر قبل هذه الفترة التي حددها الجاحظ. وعلى الرغم من ذلك فإن جهود الدارسين في العصر الحديث ظلت مجرد افتراضات قد تبدو منطقية، أو استنتاجات عقلية استنباطية وليست مادية وثائقية. فحاولنا مناقشة النصين، وعرض آراء النقاد والدارسين المهتمين فيما يخص تلك الفترة المجهولة من طفولة الشعر الجاهلي، وكيف كانت الأشكال والقوالب والأنماط التي تطورت وأفرزت نوع القصيد. هل هي الموسيقى الصوتية التي رافقت حركة الخيل والإبل، أو سير الخطى، أو حركات العمال أثناء العمل، أو سجع الكهان والعرافين القائم على التقفية..؟

وليس من اليسير أن نضع أيدينا على أولية الشعر العربي قبل أن يصل إلينا في صورته الحالية، لأن مرحلة الطفولة التي عاشها هذا الشعر مازال يكتنفها الغموض، ويلفها ضباب كثيف، وهي فترة أهملها التاريخ المدون من ضمن ما أهمله من تاريخ العرب القديم لأسباب من أهمها، ندرة الكتابة في بلاد العرب آنذاك، وشيوع الأمية، والاعتماد على الذاكرة أو الحافظة في تلقي الأدب والأخبار، ولاشك أن هناك محاولات وإرهاصات أولية لنظم الشعر قبل أن يصل إلينا في صورته المكتملة مع امرئ القيس وخاله مهلهل، وزناً وقافية وشكلاً ومضموناً، غير أن هذه المحاولات والإرهاصات ضاعت وسقطت من يد الزمن من ضمن ما ضاع من تراث العرب وأخبارهم قبل عصر التدوين والكتابة. وفي هذا السياق قال أبو عمرو بن العلاء الراوية المشهور: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير»، ويعلل محمد بن سلام الجمحي ضياع شعر العرب بقوله: «لما جاء الإسلام تشاغلت العرب عن الشعر، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا

إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت، والقتل فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير».

وقد حاول بعض الباحثين من قدامى ومحدثين أن يزيحوا جانباً من الغموض حول أولية الشعر العربي، وبداية نشأته، فوضعوا بعض النظريات والافتراضات التي يمكن أن تتخذ منطلقاً وقاعدة بحث لوضع تصور عن بداية الشعر العربي في عصوره المتقدمة في الجزيرة العربية، فرأى بعضهم أن نشأة الشعر ارتبطت بحداء الإبل، وهو أن يغني لها صاحبها في أثناء سيرها بصوت منغوم حسن مرتفع، فتطرب، وتنشط في سيرها، ومازال الحداء في صورته الجاهلية القديمة معروفاً لدى القبائل التي تعيش في الصحراء وتقتني الإبل، ثم تطور الحداء إلى الرجز، لأنه أقرب إليه، وقد يكون الحداء في بعض صوره رجزاً، نظراً لما بينهما من مشابهة في النغم وطريقة الإنشاد.

كما حاول بعض المستشرقين المهتمين بدراسة الأدب العربي، مثل كارل بروكلمان، أن يستخلصوا من الملابسات المتشابهة عند الشعوب البدائية الأخرى نتائج يمكن تطبيقها على الحياة العربية، في محاولة لرسم نظرية لأولية الشعر العربي، حيث اعتبروا أن الأغاني القصيرة الخفيفة التي تُرَدَّدُ عند القيام بعمل من الأعمال، أو مزاولة حرفة من الحرف، أو في أثناء السفر، لما لها من أثر سحري فعال في الحث على النشاط، واستنهاض الهمم والإقبال على العمل، أو للتعبير عن الحالات العاطفية والشعورية كالفرح والحزن، وكأن تلك الأغاني أو المقطوعات القصيرة هي الإرهاصة الأولى لنشأة الشعر وتطوره، ليس عند العرب فقط، بل عند جميع الشعوب الشاعرة أو ذات الإنتاج الشعري، كاليونان والرومان والفرس والهنود. وهذه المقولة لا تخرج في مفهومها العام عن النظرية التي ذكرناها، وهي انبثاق الشعر من حداء الإبل.

يقول كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي:« أراد باحث الاجتماع والاقتصاد السياسي كارل بوخر k.Bucher أن يقرر في كتابه: "العمل والنغم"، أن حركات العمل الطبيعية المنتظمة، ولا سيما حركات العمل الجماعي، كانت تحث من تلقاء نفسها على التغنّي بأغان موزونة مصاحبة للعمل و ميسّرة له تيسيرا نفسيا. ولقد رُوِيت لنا عن العرب أيضا مثل هذه الأغاني التي تصحب العم » . ثم يضيف قائلا: « فلم يكن الغناء في مثل هذه الأحوال متسقا مع نغم العمل تسهيلا له كما تقدم، وإنما كان العمل يسلّي العمال ويسعفهم بقوى سحرية. وإذاً فلا بدّ أن يكون الغرض الذي قصد إليه الشعر في الأصل، ما دام لم يكن مقصودا منه مجرّد المسامرة، هو الغرض من جميع فنّ القول عند البدائيين، وهو تشجيع العمل بريق سحري » .

ونورد رأي عادل جاسم البياتي في هذه القضية إذ يقول: « فقبل أن يصبح الشعر فنّا ناضجا من الكمال اللغوي والمعنوي، كان رُقى وتعويذات يرسلها الكاهن كما يرسل السحرة طلاسمهم تفعل فعلها في النفوس، حيث كان الشاعر كاهنا يعمل في معابد الآلهة وهياكلها، وكلامه إيحاء غيبي يستمطر به الخير والنعيم على الناس في حالة المديح، واللعنة والشقاء والويل والثبور في حالة الهجاء... ».

ويرى بعض الدارسين أن السجع كان البذرة الأولى لبداية الشعر، ثم تطور السجع إلى الرجز، ثم تحول الرجز إلى ذلك الشعر المنظوم على البحور الشعرية المعروفة، التي استنبطها الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولم يكن الرجز في العصر الجاهلي شائعاً، فلا يوجد منه إلا الأبيات القليلة يقولها الراجز في حاجته، ولم يكثر الشعراء منه إلا في العصر الأموي، حيث وجد رجاز تفرغوا له، منهم العجاج، وابنه رؤبة، وأبو النجم العجلي، والزفيان السعدي، حتى سمي بحر الرجز بحمار الشعراء، لكثرة ما نظموا فيه. وهذا أيضا ما ذهب إليه المستشرق كارل

بروكلمان عند قوله: «ينبغي أن يكون أقدم القوالب الفنية العربية هو السجع، أي النثر المقفى المجرّد من الوزن، ويبدو أن النّقوش اليمنية تدل على اتجاهات إلى استعمال القافية، وليس لدى الأحباش من قوالب اللغة الفنية سوى التقفية، أي استعمال السجع..، والسجع هو القالب الذي كان يصوغ العرافون والكهنة فيه كلامهم وأقوالهم، كما جاء في القرآن. واستعمل الحكم الحضري قالب السجع البدائي في الهجاء حتى على عهد بني أمية».

لقد حاول ابن سلام أن يضرب لنا مثالاً في مقدمة كتابه «طبقات فحول الشعراء» لبداية نشأة الشعر عند العرب بقوله: «لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنما قصدت القصائد، وطول الشعر على عهد عبد المطلب، وهاشم بن عبد مناف»[5]. ثم قوله أيضا: «وكان أول من قصّد القصائد وذكر الوقائع، المهلهل بن ربيعة التغلبيّ في قتل أخيه كليب وائل، قتلته بنو شيبان، وكان اسم المهلهل عديّا، وإنما سمي مهلهلا لهلهلة شعره كهلهلة الثوب، وهو اضطرابه واختلافه»[6]. فالنّصان يفصحان عن أمرين اثنين: أولهما أن المهلهل يمثل مرحلة من مراحل نمو الشعر الجاهلي على مستوى الشكل وهي مرحلة عبوره من طور المقطوعة إلى طور القصيدة التامة. وثانيهما، أن المهلهل رغم ارتقائه إلى الإبداع في نمط القصيد، لازال في بعض شعره نوع من الاضطراب بالقياس إلى غيره من الشعراء الجاهليين، أي أنه متأثر بخصوصية المرحلة السابقة التي كان الشاعر يعبر فيها عن حاجته بأبيات قليلة لا تتعدّى غرضا واحدا. فكان قالب المقطوعة هو الشكل المناسب في تلك المرحلة.

ومن تم يمكن القول أن نمط المقطوعة الشعرية، والنتفة أو الأبيات القليلة هي الأشكال التي كانت سائدة في هذه الحلقة الأولى المفقودة من الشعر العربي. ومما يعضد رأينا أن شعر الصعاليك الذي كان في مجمله عبارة عن مقطعات شعرية، يمثل مظهرا من مظاهر تلك البداية

---

[5] - طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، 26/1.

[6] - نفس المصدر، 39/1.

الأولى، مع العلم أن حياة الشعراء الصعاليك لم تعرف الاستقرار أيضا حتى بعد سيادة اللهجة الرسمية الموحدة أي اللغة العربية الفصحى التي نُظم بها الشعر الجاهلي المدون. فقبل هذه المرحلة كان لكل قبيلة لهجتها الخاصة، وكانت تعيش تناحرا فيما بينها انتفت معه ظروف الاستقرار، وبالتالي عدم توافر شروط الإبداع الناضج والمكتمل. يقول د سيد حنفي حسنين في كتابه "الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية"، ص 26: « وقد استمرّ الشاعر العربي ينظم المقطوعة ذات الموضوع الواحد حتى عصر سيادة اللهجة الرسمية الموحدة أو اللغة العربية الفصحى، وكثير من تلك المقطوعات التي وصلتنا منذ منتصف القرن السادس يثبت أنها كانت الشكل السائد بين الشعراء قبيل ذلك، ثم استمرّ هذا الشكل حتى عصر احتراف الشعر ». وباعتبار أن شعر الصعاليك يمثل اتجاها فنّيا أقرب إلى الإبداع الشعبي الثائر منه إلى الإبداع الرسمي(القصائد وخاصة المعلقات)، فسوف نلاحظ أن أغلبه مقطوعات شعرية. وفي هذا السياق يقول الدكتور يوسف خليف في كتابه الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 260: « وقد يكون من الطّريف أن نلاحظ أن كل ما وصلنا من شعر أبي الطّمحان مقطوعات قصيرة أطولها أربعة أبيات، وأقصرها بيتان، وأن كل ما وصل إلينا من شعر حاجز، ما عدا قصيدة ميمية في تسعة أبيات، مقطوعات قصيرة، أقصرها في بيتين وأطولها في سبعة، وأن كل ما وصل إلينا من شعر السّليك، مقطوعات أقصرها في بيتين وأطولها في ستة أبيات...». ولا شك أن طبيعة حياة الصعاليك وظروفهم الاجتماعية غير المستقرة جعلتهم لا يفرغون للفن والإبداع وبالتالي لا سبيل لهم إلى إطالته وتجويده وتنقيحه كما كان يفعل الشعراء الرسميون المتحدثون باسم القبيلة. ولعل اعتماد قالب المقطوعة لم يكن من ديدن الشعراء الصعاليك فحسب، وإنما نجد كبار الشعراء المقصدين لم يستغنوا عنها. وإذا نظرنا إلى ما وصلنا من شعر مدون، فسنجد أن قالب المقطوعة هو الذي يسمح للشاعر أن يعبّر عن

المضمون الواحد في الموقف الواحد بالسرعة المطلوبة، بل إن كبار الشعراء المقصدين لجأوا إلى المقطوعة عندما أحسّوا أن القصيدة لن تسعفهم في سرعة الرّدّ على الخصم، أو لن تحقق لهم الهدف الذي ينشدونه في التعبير المباشر عن الفكرة الملحة التي تستفز مشاعرهم. وبذلك شكّلت المقطوعة القالب الأول الذي نظم فيه الشعر العربي الجاهلي وهو نمط لم يختف في مرحلة تقصيد الشعر بل ظلّ شكلا فنيا يتيح لهم الإبداع وفق الضرورة والظروف التي ينظمون فيها.

لكن يبقى ما ذكرناه مجرد نظريات لا يطمئن الدارس إلى ما تفضي إليه من نتائج وحقائق ما لم تكن مدعومة بالأمثلة الصحيحة والشواهد الأدبية والتاريخية، لأن نشأة الشعر العربي حدثت في فترة وبيئة غفل عنهما التاريخ، ولعل الطريق الأمثل لدراسة نشأة أدب من الآداب الإنسانية هو أن نتخذ من دراسة نشأة اللغة، وعوامل تكونها وتطورها، ومضاهاتها باللغات التي تأثرت بها أو أثرت فيها، منطلقاً لوضع أيدينا على البدايات الأولى للشعر، لأن اللغة وعاء الشعر، والشعر أيضاً لا ينشأ من فراغ، فلكي يعطي ثماره، لا بد أن تكون اللغة نفسها قد وصلت إلى مرحلة من النضج تستوعب فيها التعبير عن العواطف والمشاعر والأفكار، وغير ذلك من الحالات الشعورية والمواقف الإنسانية. فإمساك الباحث بأول خيط نشأة اللغة، وتتبع مراحل تطورها عبر الزمن سيتيح له الوقوف على بداية الشعر، ومحطات تطوره، ولكن قد توجه ملحوظة إلى هذا الرأي، وهي أن بداية اللغة نفسها غير واضحة المعالم، كالشعر تماماً، والدراسات التي كتبت عن أولية اللغة لا تكاد تسلم من الافتراضات، وربما التخمينات في طرح بعض النظريات، التي قد لا تصحّ، ولكن قد تساهم في حل الغموض الاستعانة بالنقوش والكتابات العربية التي عثر عليها في الكهوف والمعابد، وفوق الصخور في أماكن متعددة من شبه الجزيرة العربية، كالجوف، وتيماء، ومدائن صالح، والفاو، بالإضافة إلى الاستعانة

بالحفريات والآثار، التي تلقي بعض الأضواء على حياة العرب الأولى، وصلتهم بالأمم الأخرى، وقد وجدت دراسات كثيرة حول هذه الموضوعات قام بمعظمها رحالة ومستشرقون وكتبوها بلغاتهم الأصلية، ومثل هذه الدراسات والبحوث، التي تكتب عن نشأة اللغة وتدوين بداياتها الأولى قد تضعنا على أول الطريق لوضع نظرية صحيحة لنشأة الشعر العربي.

2- الشعر والدعوة الإسلامية

أشاع ثلة من الباحثين عربا ومستشرقين، فكرة ضعف الشعر العربي وقلة إنتاجه خلال فترة صدر الإسلام، واعتمدوا في ادعائهم هذا على ما أورده نقّاد القرنين الثاني والثالث الهجريين من أخبار وأحكام نقدية؛ مثل ما ذكره ابن سلام الجمحي في طبقات فحول الشعراء:« كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والرّوم، ولهت عن الشعر وروايته...» . وما أُثر أيضا عن الأصمعي في قولته الشهيرة: «الشعر نكد بابه الشّر إذا دخل في الخير ضعف ولان» . كما اعتمدوا كذلك على ما جاء في القرآن الكريم من آيات في الشعر والشعراء، خصوصا قوله تعالى: "والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا، وانتصروا من بعد ما ظُلموا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون". وتناقلوا أيضا حديث الرسول الكريم: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا ودما خيرٌ له من أن يمتلئ شعرا". ولا شك أن مضمون الآية الكريمة واضح لا داعي لمناقشته، كما أن الحديث هنا محمول على من استرسل في الشعر حتى شغله عن ذكر الله وتلاوة كتابه الكريم، وعن تعلّم العلم الشرعي النافع. وفي هذا الحال يصير جاهلا بأمور دينه. وهذا يعني أن من كان مواظبا على قراءة كلام الله ومسترشدا بسنّة نبيه، ومنكبّا على تعلم العلم الشرعي،

فشعره مشروع. ومن هنا نخلص أن الإسلام لم يكن له عداء مع الشعر، باستثناء الشعراء الذين انصرفوا إلى هجاء الرسول الكريم، أو أولئك الذين غلب الشعر عليهم فصرفهم عن دينهم وعن التفقه في العلوم الشرعية. أو من طرق منهم أغراضا تمس بالإنسان وكرامته كالهجاء المدقع والغزل الفاحش الذي أحط من قيمة المرأة ومكانتها في الأسرة والمجتمع، وهذه أغراض تنفر منها الطباع السليمة. جاء في كتاب العمدة لابن رشيق، 92/1- 93 ما نصه: " وأما قوله عليه الصلاة والسلام (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه، خير له أن يمتلئ شعرا). فإنما هو فيمن غلب الشعر على قلبه، وملك نفسه حتى شغله عن دينه، وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن... وأما غير ذلك ممن يتخذ الشعر أدبا وفكاهة، وإقامة مروءة، فلا جناح عليه".

وإذا عدنا إلى قضية الضعف الفني الذي أُلصِق بالشعر في فترة صدر الإسلام، خصوصا مع قولة الأصمعي الشهيرة: "الشعر نكد بابه الشرّ، إذا دخل في الخير ضعف ولانَ". فإننا نؤكد متفقين مع الكثير من الدارسين الذين ارتأوا أن هذا الضعف إنما بدأ في الحقيقة قبيل الإسلام لا بعده، عندما انتهى زمن الفحول ولم يبق إلّا الأعشى الذي مات – كما تقول الرواية — وهو في طريقه إلى النبي ﷺ ليمدحه ويعلن إسلامه، وكذا الشاعر لبيد التي كان قد تجاوز الستين وأوشك أن يكف عن قول الشعر، ولم يبق عند ظهور الإسلام إلّا شعراء مقلّون؛ بعضهم مجيد في قصائد مفردة، ولكن لا يبلغون شأو الفحول.

وعلى الرغم مما قيل في هذه القضية (بين قائل بضعف الشعر وقائل بارتقاء أساليبه ونضج بلاغته)، فإنه من المفيد أن نقدم نماذج من شعر حسان بن ثابت قالها في مرحلة إسلامه فوجدناها قمة في الجودة. مثل قصيدته التي مطلعها:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عــذراء منــزلها خـلاء

ديار من بني الحسحاس قفر تعفّيــها الروامــس والسماء

وكانــت لا يـزال بها أنيس خـلال مروجهـا نَعَـمٌ وشاء

فدع هـذا ولكن من لطيف يؤرّقـــني إذا ذهـب العشاء

...تضل جيادنا متمطّرات تلطّمهــن بالخُمُــر النساء

فإمــا تعرضـوا عنّا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء

فهذه الهمزية بالإضافة إلى دالية كعب بن زهير المشهورة:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيـم إثرها لم يُفـد مكبول

من أجود ما نظمه الشاعران من قصائد مادحة، وهما قصيدتان في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، شكّلتا منطلقا موضوعيا وفنّيا لدى كثير من شعراء العربية على مرّ العصور، فأبدعوا في معارضتهما وتخميسهما وشرحهما مما نجم عنه حركة أدبية ونقدية على قدر كبير من الأهمية في تاريخ الأدب العربي.

وهذا يؤكد ما ذهب إليه ابن خلدون الذي فضَّل كلام الإسلاميين على من سبقهم من فطاحل الجاهلية، "والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث، اللّذيْن عجز البشر عن الإتيان بمثلهما، لكونها ولجت في قلوبهم

ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية"[7].

كما أنه من غير المعقول أن نقبل بمقولة ربط قوة الشعر بالكذب والشر، فهذا رأي مخالف لمذاهب النقاد الذين يتفقون على أن القوة والضعف راجعة بالأساس إلى طبع الشاعر وموهبته، وصدق عاطفته، وكما تتأثر النفوس بعوامل الشر تنفعل أيضا بعوامل الخير، وقد يصل تفاعلها مع مكامن الخير أقصى درجاته، فيرتقي شعرها فيه إلى أسما تجلياته. وكان ممن نفى مقولة ضعف الشعر الإسلامي من المحدثين الدكتور عمر فروخ في كتابه تاريخ الأدب العربي، والدكتورة عائشة بنت الشاطئ في كتاب قيم جديدة للأدب العربي، والمستشرق نيلينو في كتابه تاريخ الآداب العربية.

واتخذ بعض الباحثين موقفا وسطا بين القائلين بضعف الشعر الإسلامي، والقائلين بأن الإسلام فجر طاقات الشعراء وبعث الروح في أشعار تلك الفترة. ومنهم الدكتور يوسف خليف في قوله: ولسنا ندّعي أن القرآن صَرَف العرب جميعا عن قول الشعر، أو أنه أخرس ألسنتهم حتى لم تعد تنطق به، وإنما الذي نقرره هو أن الإسلام أضعف سيطرة الشعر على المجتمع الأدبي الإسلامي، بعد أن كان هو اللون الأساسي في الحياة الأدبية الجاهلية. وإذا كان لبيد قد فكّر في أن يحطّم قيثارته فقد كان هناك غيره... احتفظوا بقيثاراتهم دون أن يحطّموها. والظاهر أن القائلين بترك الشاعر لبيد بن ربيعة للشعر عند دخوله الإسلام، لم يستقصوا أشعاره، إذ نجد له نصوصا إسلامية كثيرة، فكيف يقال إنه هجر الشعر بعد إسلامه وفي ديوانه قصيدته الإسلامية:

---

[7] – المقدمة، ابن خلدون ص: 1115-1116.

قضي الأمر وأنجز الموعود والله ربي ماجد محمود

وقصيدته التي يقول فيها:

إنما يحفظ التقى الأبرار وإلى الله يستقر القرار

وحتى إن افترضنا توقف لبيد عن قول الشعر، فذلك لم يتكرر مع غيره من الشعراء، الذين واكبوا فترة الدعوة الإسلامية، ومسيرة الفتوحات بعد ذلك. فمن المعلوم أن الرسولﷺ لـمّا انتقل إلى المدينة، وقامت للإسلام دولة، واحتدم الصراع بين الإسلام والكفر، استنهض همم الشعراء المسلمين، يؤيدهم ويشد أزرهم، ويوجههم إلى ما يوافق الإسلام ويدعم الدعوة الإسلامية، لأنه يدرك أثر الشعر في تلك المعارك، وتأثيره في نفوس العرب، فحث شعراءه على هجاء الكافرين، والتصدّي لهم، فكان يقول لهم: "قولوا لهم مثل ما يقولون لكم". ومن أشهر شعراء الإسلام آنذاك كعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة. وكان هذا الأخير غالبا ما يستفسره الرسول ﷺ عن الشعر وأحوال الشعراء، فقد سأله مرة: ما الشعر؟ فأجابه ابن رواحة: "شيء يختلج في صدر الرجل، فيخرجه على لسانه شعرا". وقد وصلنا كثير من الأحاديث النبوية، يتحدث فيها النبي الكريم عن الشعر والشعراء، لعل أبرزها قوله: "إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحِكما" وذلك في معرض تعليقه على أبيات ابن الحضرمي التي قال فيها:

وحي ذوي الأضغان تسب قلوبهم تحيتك الحسنى فقد يرقع النّعل

فإن دحسوا في الكره فاعف تكرّما وإن أخنسوا عنك الحديث فلا تسل

فإن الذي يؤذيك منه استماعه وإن الذي قالوا وراءك لم يُقَل

وفي تعليق الرسول ﷺ إعجاب بحكمة الشاعر، واعتراف بسحر بيانه، وبالتالي إقرار بالوظيفة السحرية/ التأثيرية للشعر. وأبلغ من هذا ما رُويَ عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله تعالى عنها: "أن النبي ﷺ بنى لحسان بن ثابت في المسجد منبراً ينشد عليه الشعر". وبناء على ما سبق يتضح موقف الرسول الكريم من الشعر، فقد كان يستمع إليه ويتأثر به ويتمثل به وينهى عن بعضه... شأنه في ذلك شأن أي عربي آخر. ويكفينا أن نعود إلى كتاب العمدة لابن رشيق خصوصا في الأبواب الثلاثة الأولى: باب في فضل الشعر، وباب في الرّد على من يكره الشعر، وباب في أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء، لنقف عند كثير من أحاديث الرسول ﷺ، وأقوال الصحابة والخلفاء الراشدين، وأشعارهم وكلها تصب في اتجاه أهمية الشعر ومواكبته لأطوار الدعوة الإسلامية وتخليده لآثار وحكم السيرة النبوية الشريفة.